

الشفقة (دون أي احترام) على أحسنه، وننسى تماماً أن الدولة العثمانية كانت تحمي شعوبها - رغم ضعفها واستبدادها - من الهجمة الاستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره، وننسى أن رجل أوروبا لم يكن من أوروبا، وإنما كان يقف على رأس الشرق الإسلامي زعيماً وقائداً له. ومن الواضح أن صورة رجل أوروبا المريض تعكس منظوراً غريباً للقضية، ينظر إلى الدولة العثمانية باعتبارها ميراثاً سيُقسَّم ويُوَزَّع بين القوى الغربية، وهي رؤية لا علاقة لها من قريب أو بعيد برؤية شعوب هذه المنطقة.

والصورة تفترض أن هذا الرجل المريض يوجد على حدود أوروبا، ولكنه ليس منها، وبالتالي تحدد لنا مجال الرؤية التاريخية المسموح لعيوننا بالتحرك فيه، الأمر الذي ينسينا صورة مجازية أخرى، صورة «رجل أوروبا النَّهْم المفترس»، أي الإمبريالية الغربية التي كانت تبيد سكان إفريقيا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعداداً كبيرة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان استراليا ونيوزيلندا، والتي كانت تقوم في الوقت نفسه باستعباد سكان آسيا، وتخوض حرباً ضارية لتسويق الأفيون في الصين لنشر التقدم الأوربي والغيوبة العالمية الدائمة بين ربوعه! هذا الرجل النَّهْم كان رابضاً على حدود العالم الإسلامي بعد أن التف حوله عدة قرون خشية «رجل أوروبا العثماني القوي» الذي كان لا يزال بعافيته، وهو كان رابضاً يتلمظ ويمصمص شفثيه على أمل أن يحل الوهن بـ «الرجل العثماني المسلم». وحينما بدأ المرض يدب فيه كان يقضم منه قضمه هنا وقضمه هناك، وكان يدس له السم أحياناً في طعامه، بل فيما يقدمه له من أدوية وهمية (من مساعدات وخلافه). وقد جمع «رجل أوروبا النَّهْم» كل قواه وقضى على «رجل الشرق الفتي» (مصر محمد علي) الذي كان بوسعه أن يحقن الرجل المريض ببعض المقويات، ولعله كان من الممكن أن يُشْفَى ويُعافَى نتيجة ذلك. كل هذه الظلال والمعاني والدلالات اختفت تماماً بسبب عبارة «رجل أوروبا المريض»، التي رسمت أمامنا صورة أخفت صورة «الرجل النَّهْم».